مجمع البيان في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن
الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان

مجمع البيان في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

الجزء الثالث

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان -بيروت , ص.ب :٢٥/١٥٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing -Publishing -Distributing
Lebanon -Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel -Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

الطبعة الأولى

1427 هجرية

2006 ميلادية

عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم. فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثون رجلًا باتوا من ليلهم على فرشهم مع نسائهم في ديارهم، فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات، ويأكلون العذرة في الحشوش. فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا وبكى على الممسوخين أهلوهم، فعاشوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا. وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام: كانت المائدة تنزل عليهم فيجتمعون عليها، ويأكلون منها، ثم ترتفع، فقال كبراؤهم ومُتْرَفُوهم: لا ندع سَفَلَتنا يأكلون منها معنا، فرفع الله المائدة ببغيهم ومسخوا قردة وخنازير.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

● **اللغة:** النفس تقع على وجوه: فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان، وهي التي إذا فارقها خرج من كونه حياً، ومنه قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. والنفس أيضاً ذات الشيء الذي يخبر عنه، كقولهم: فعل ذلك فلان نفسه، والنفس أيضاً الإرادة، كما في قول الشاعر:

فنفسايَ نَفْسٌ قالت ائتِ ابْنَ بَجْدَلٍ ... تَجِدْ فَرَجاً من كلِّ غُمّى تهابُها[1]
ونفسٌ تقول: اجْهَدْ بخائك[2] لا تكنْ ... كخاضبةٍ لم يُغْنِ شيئاً خِضابُها

وقال النمر بن تولب:

أمّا خليلي فإني لستُ مُعجِلَهُ ... حتى يُؤامِرُ نَفْسَيْه كما زَعَما
نفسٌ له مِنْ نفوسِ القومِ صالحةٌ ... تُعطي الجزيلَ ونفسٌ تَرْضَعُ الغنما

يريد أنه بين نفسين: نفس تأمره بالجود، وأخرى تأمره بالبخل، وكنى برضاع الغنم عن البخل، كما يقال: لئيم راضع. والنفس: العين التي تصيب الإنسان، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرقي فيقول: «بسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء هو فيك، من كل عين عاين، ونفس نافس، وحسد حاسد». قال ابن الأعرابي: النفوس الذي يصيب الناس بالنفس، وذكر رجلًا فقال: كان حسوداً نفوساً كذوباً، وقال ابن قيس الرقيات:

يتّقي أهلُها النفوسَ عليها ... فعلى نَحْرِها الرُّقى والتَّميمُ

(١) الغمى: الشدة.
(٢) أي عجل.

وقال مضرس:

وإذا نَمَوا صُعُداً فلَيْسَ عليهم ... مِنا الخِيالُ ولا نُفوسُ الحُسَّدِ

والنفس: الغَيْب، يقال: إني لأعلم نفس فلان، أي غيبه، وعلى هذا تأويل الآية. ويقال: النفس أيضاً العقوبة، وعليه حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ والرقيب: أصله من الترقب والانتظار، ومعناه: الحافظ، ورقيب القوم حارسهم. والشهيد: الشاهد لما يكون، ويجوز أن يكون بمعنى العليم.

● **الإعراب:** حقيقة «إذ» أن يكون لما مضى، وهذا معطوف على ما قبله، فكأنه قال: يوم يجمع الله الرسل، فيقول: ماذا أجبتم، وذلك إذ يقول: يا عيسى. وقيل إنه تعالى إنما قال له ذلك حين رفعه إليه، فيكون القول ماضياً، عن البلخي، وهذا قول السدي، والصحيح الأول، لأن الله عقّب هذه الآية بقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ وأراد به يوم القيامة، وإنما خرج هذا مخرج الماضي وهو للمستقبل تحقيقاً لوقوعه، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ومثله قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ يريد: إذ يفزعون، وكذلك قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. وقال أبو النجم:

ثُمَّ جَزاهُ الله عَنّي إذ جَزَى ... جَنَّاتِ عَدْنٍ في العَلاليّ العُلا[1]

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾: مِنْ زائدة مؤكّدة للمعنى، قوله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ﴾ المعنى: إن أكن الآن قلته فيما مضى، وليس كان فيه على المعنى، لأن الشرط والجزاء لا يقعان إلا فيما يستقبل، وحرف الجزاء يُغيِّر معنى المضي إلى الاستقبال لا محالة، هذا قول المحققين، وقوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ذكر في محله وجوه:

أحدها: النصب بدلاً مما أمرتني به.

والثاني: أن يكون مجروراً لموضع بدلاً من الهاء في به.

والثالث: أن يكون أن مفسّرة لما أمر به بمعنى أي، وعلى هذا فلا موضع لها من الإعراب.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم من أمر المسيح، فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾ والمعنى: إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، هذا وإن خرج مخرج الاستفهام فهو تقريع وتهديد لمن ادعى ذلك عليه من النصارى، كما جرى في العُرْفِ بين الناس أنّ من ادعى على غيره قولًا، فيقال لذلك الغير بين يدي المدعى عليه ذلك القول: أأنت قلت هذا القول، ليقول لا، فيكون ذلك استعظاماً لذلك القول وتكذيباً لقائله، وذكر فيه وجه آخر، وهو أن يكون تعالى أراد بهذا القول تعريف عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن قوماً قد اعتقدوا فيه وفي أمه أنهما إلٰهان، لأنه يمكن أن يكون عيسى لم يعرف

(١) العلالي جمع العلية وهي بيت منفصل عن الأرض ببيت ونحوه.

ذلك إلا في تلك الحال، عن البلخي، والأول أصح. وقد اعترض على قوله: إلٰهين، فقيل: لا يُعلم في النصارى من اتخذ مريم إلٰهاً، والجواب عنه من وجوه:

أحدها: أنهم لما جعلوا المسيح إلٰهاً، لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً إلٰهاً، لأن الولد يكون من جنس الوالدة، فهذا على طريق الإلزام لهم.

والثاني: أنهم لما عَظَّمُوهما تعظيم الآلهة، أطلق اسم الآلهة عليهما، كما أطلق اسم الرب على الرهبان والأحبار في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لما عظموهم تعظيم الرب.

والثالث: أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، ويعضد هذا القول ما حكاه الشيخ أبو جعفر عن بعض النصارى، أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم المَرْيَمِيَّة يعتقدون في مريم أنها إله، فعلى هذا يكون القول فيه كالقول في الحكاية عن اليهود وقولهم: «عزيز ابن الله». ﴿قَالَ﴾ يعني عيسى ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ جل جلالك وعظمت وتعاليت، عن عطاء. وقيل: معناه تنزيهاً لك وبراءة مما لا يجوز عليك، وقيل: تنزيهاً لك من أن تبعث رسولاً يدعي إلٰهية لنفسه ويكفر بنعمتك، فجمع بين التوحيد والعدل، ثم تبرأ من قول النصارى، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي لا يجوز لي أن أقول لنفسي ما لا يحق لي فآمر الناس بعبادتي وأنا عبد مثلهم، وإنما تحق العبادة لك لقدرتك على أصول النعم. ثم استشهد الله تعالى على براءته من ذلك القول فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ يريد أني لم أقله، لأني لو كنت قلته لما خَفِيَ عليك لأنك علام الغيوب ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ أي تعلم غيبي وسري ولا أعلم غيبك وسرك، عن ابن عباس. وإنما ذكر النفس لمزاوجة الكلام، والعادة جارية بأن الإنسان يُسِرُّ في نفسه، فصار قوله: ﴿مَا فِي نَفۡسِي﴾ عبارة عن الإخفاء، ثم قال: ﴿مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ على جهة المقابلة، وإلا فالله منزّه عن أن يكون له نفس أو قلب تحل فيه المعاني، ويقوّي هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ لأنه عَلّلَ عِلْمَه بما في نفس عيسى عليه السلام بأنه علام الغيوب وعيسى ليس كذلك، فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه، ثم قال حكاية عن عيسى في جواب ما قرره تعالى عليه ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أي لم أقل للناس إلا ما أمرتني به من الإقرار لك بالعبودية، وأنك ربي وربهم، وإلٰهي وإلٰههم، وأمرتهم أن يعبدوك وحدك ولا يشركوا معك غيرك في العبادة، ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ أي شاهداً ﴿مَّا دُمۡتُ﴾ حياً ﴿فِيهِمۡۖ﴾ بما شاهدته منهم وعلمته، وبما أبلغتهم من رسالتك التي حملتنيها وأمرتني بأدائها إليهم. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ أي قبضتني إليك وأمتّني، عن الجبائي. وقيل: معناه وفاة الرفع إلى السماء، عن الحسن. ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ﴾ أي الحفيظ ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾، عن السدي وقتادة. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي أنت عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليك خافية، ولا يغيب عنك شيء.

قال الجبائي: وفي هذه الآية دلالة على أنه أمات عيسى وتوفاه، ثم رفعه إليه، لأنه بيّن أنه كان شهيداً عليهم ما دام فيهم، فلما توفاه الله كان هو الشهيد عليهم، وهذا ضعيف، لأن التوفي لا يستفاد من إطلاقه الموت، ألا ترى إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي

مَنَامِهَا﴾ فبيّن أنه تعالى يتوفى الأنفس التي لم تمت. ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ لا يقدرون على دفع شيء من أنفسهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في هذا تسليم الأمر لمالكه وتفويض إلى مُدَبِّرِه وتَبَرُّؤ مِنْ أَنْ يكون إليه شيء من أمور قومه، كما يقول الواحد منا إذا تَبَرَّأ من تدبير أمر من الأمور ويريد تفويضه إلى غيره: هذا الأمر لا مدخل لي فيه، فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه، مع علمه وقطعه على أن أحد الأمرين لا يكون منه، وقيل أن المعنى: إنْ تُعَذِّبْهُم فبإقامتهم على كفرهم، وإنْ تَغْفِر لهم فبتوبة كانت منهم، عن الحسن. فكأنه اشترط التوبة وإن لم يكن الشرط ظاهراً في الكلام، وإنما لم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم، لأن الكلام لم يخرج مخرج السؤال، ولو قال ذلك لأوهم الدعاء لهم بالمغفرة على أن قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أبلغ في المعنى، وذلك أن المغفرة قد تكون حكمة وقد لا تكون، والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على معنى الغفران والرحمة إذا كانا صوابين، ويزيد عليهما باستيفاء معانٍ كثيرة، لأن العزيز هو المنيع القادر الذي لا يضام، والقاهر الذي لا يرام، وهذا المعنى لا يفهم من الغفور الرحيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها، ولا يفعل إلا الحسن الجميل، فالمغفرة والرحمة إن اقتضتهما الحكمة دخلتا فيه وزاد معنى هذا اللفظ عليهما من حيث اقتضى وضعه بالحكمة في سائر أفعاله.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وحده: «يومَ يَنفع» بالنصب، والباقون بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: من رفع يوماً جعله خبر المبتدأ الذي هو: ﴿هَٰذَا﴾، وأضاف يوماً إلى: ﴿يَنفَعُ﴾. والجملة التي هي من المبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول، كما تقول: قال زيد: عمرو أخوك.

ومن قرأ: «هذا يومَ ينفع» احتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مفعول قال تقديره: قال الله هذا القصص أو هذا الكلام، يوم ينفع الصادقين صدقهم، فيوم ظرف للقول، و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وجاء على لفظ الماضي، وإن كان المراد به الآتي، كما قال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ونحو ذلك، وليس ما بعد قال حكاية في هذا الوجه، كما كان إياها في الوجه الآخر.

ويجوز أن يكون المعنى على الحكاية، وتقديره: قال الله: هذا يومَ ينفع، أي هذا الذي اقتصصنا يقع أو يحدث يوم ينفع، وخبر المبتدأ الذي هو هذا الظرف لأنه إشارة إلى حدث، وظروف الزمان تكون أخباراً عن الأحداث، والجملة في موضع نصب بأنها في موضع مفعول، قال: ولا يجوز أن يكون في موضع رفع وقد فتح، لأن المضاف إليه معرب، وإنما يكتسب